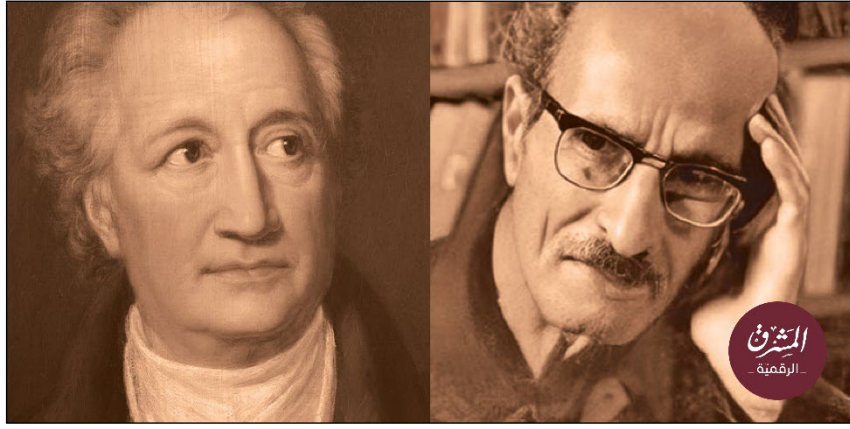


## الصّمت في مذكّرات الأرقش لميخائيل نعيمة، وآلام فرتر ليوهان فولفغانغ فون غوته

الدّكتورة زكيّة نعيمة\*



شخصيّة الأرقش وفرتر نموذجان للفرد الذي اختار عزلته وصمته بنفسه

يهدف هذا البحث القصير إلى دراسة موضوع الصّمت في كلّ من كتاب مذكّرات الأرقش لميخائيل نعيمة، وكتاب آلام فرتر *Die Leiden des jungen Werthers* ليوهان فولفغانغ فون غوته Johann Wolfgang von Goethe. لقد اخترنا هذا الموضوع لأنّه الدّافع الرّئيسيّ لولادة مذكّرات الأرقش ورسائل فرتر.

يُقسم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام: في القسم الأوّل، سنقدّم لمحة عن الكتابين تمهيداً للمعالجة التي ستحتلّ القسم الثّاني. أمّا القسم الثّالث والأخير فسنخصّصه لأبرز النّتائج التي توصلت إليها هذه الدّراسة القصيرة.

\* الدّكتورة زكيّة نعيمة: باحثة في اللّغة العربيّة وآدابها والفكر المعاصر، حائزة دكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها من معهد الآداب الشّرقية، جامعة القديس يوسف ببيروت. مديرة مناهج اللّغة العربيّة في شبكة مدارس سابس SABIS® الدوليّة. حائزة شهادة Mittlestufe II باللّغة الألمانيّة من معهد غوته ببيروت. من منشوراتها كتاب المرأة في فكر ميخائيل نعيمة، بيروت: دار المشرق،

وبما أنني درستُ اللغة الألمانية، من المفيد الإشارة إلى أنّ النصوص والشواهد الألمانية، قد نقلتها إلى العربية بنفسِي.

## أولاً: حكاية الكتّابين

### أ- حكاية مذكرات الأرقش

بدأ ميخائيل نعيمة بكتابة مذكرات الأرقش في إثر تخرجه من الجامعة في العام ١٩١٧. وراحت شخصية الأرقش تتبلور في ذهنه أثناء خدمته العسكرية في الجيش الأميركي آنذاك، حين كان في مدينة ريفية في ولاية بنسلفانيا Pennsylvania. انصرف وقتئذٍ عن ملاهي الحياة ودفعته الحرب إلى التفكير العميق في نفسه وفي الكون حوله، وفي الإنسان والحياة<sup>١</sup>. وذات ليلة ماطرة خطَّ نعيمة توطئة الكتاب الذي لم تكن معالمه قد توصّحت كلّ الوضوح في مخيلته. فمن هو ذلك الأرقش الذي خلقه نعيمة؟

اسمه شكيب. هو شابٌ أرجنتينيٌّ من أصل لبنانيٍّ في الثالثة والثلاثين من عمره. كان يعمل في مقهى عربيٍّ في نيويورك. لُقّب بالأرقش نظرًا إلى تشوّه وجهه بداء الجدري. وصفه صاحب المقهى بأنه لا يُعرف له أصل ولا فصل. ساكت، لا يكلم الناس إلا بكلمتي "نعم" و"لا". اختفى تاركًا في غرفته دفتر مذكراته.

بعد أن سمع نعيمة (الزّاوي) قصة الأرقش الغريبة من صاحب المقهى، سأله أن يبيعه تلك المذكرات التي تركها شكيب في غرفته. فما كان من صاحب المقهى الذي لا يعرف القراءة والكتابة إلا أن أعطاها للزّاوي. فتناول نعيمة المذكرات وقدمها بكلّ أمانة إلى القارئ.

تتكتّف المذكرات عن خبايا روح الأرقش وأفكاره بعد أن فَعَدَ ذاكرته تمامًا في إثر رؤيته منظر الدّم. وعلى الرّغم من كونه مهندسًا، فقد عملَ نادلاً في ذلك المقهى النيويوركي. وقد خلق نعيمة للأرقش ظروفًا خاصّة وغريبة ساعدت في إظهار شخصيته؛ إذ يتبيّن للقارئ في التّكملة الملحقة بالمذكرات أنّ الأرقش ذبح عروسه ليلة العرس من الوريد إلى الوريد، ثمّ لاذ بالفرار تاركًا ورقة صغيرة حُطّت عليها العبارة الآتية: "نبحثُ حبّي بيدي لأنّه فوق ما يتحمّله جسدي، ودون ما تشنّقه روعي"<sup>٢</sup>.

والكتاب هو كناية عن مذكرات يومية لا تتضمّن أيّ تواريخ، إذ اكتفى الأرقش فقط بكتابة اليوم (الاثنين، الثلاثاء...)

يقول نعيمة في سبعون، سيرة حياته: "خلقتُ "الأرقش" من خيالي، فلم يلبث أن أصبح في حياتي أكثر من خيال. فلَكمّ سامرته وسامرني، وماشيته وماشاني، وأكلته وأكلني. ولَكمّ توسّد وسادتي، وافترش فراشي، وتلخّف بلحافي. لقد جعلته يعيش على مستوى البصيرة أكثر منه على مستوى البصر"<sup>٣</sup>.

١ ميخائيل نعيمة، المجموعة الكاملة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦)، مج. ٣٥٥/١.

٢ نعيمة، المصدر نفسه، مج. ٤٤٦/٤.

٣ نعيمة، المصدر نفسه، مج. ٣٥٦/١.

كان نعيمه يخطّ مذكرات الأرقش غير واعٍ إلى أين سيصل وكيف سيختم الكتاب. وراح يرسل منه حلقات إلى مجلة الفنون<sup>٤</sup>. ولاقَت مذكرات الأرقش المنشورة آنذاك نجاحًا منقطع النظير إلى حدّ أن كتب نسيب عريضة إلى نعيمه بتاريخ ١٨ كانون الأوّل ١٩١٨ قائلاً: "... الأرقش" وصل. وقد هبّت على روعي نسمات لطيفة من خلال أوراقه. فانتعشتُ. وأظنّ - واسمح لي أن أقول ذلك - أنّ الأرقش هو أحسن ما صدر عن روحك (مع الاحترام اللائق للأباء والبنون<sup>٥</sup> وغيرها). "مذكرات الأرقش" يا ميخائيل هي بحر واسع، خضمّ. وقد أعجبتني في القسم الأخير منها القطعة الشعريّة التي ختمت بها القطعة. فزدنا زادك الله من كلّ ما تشتهيّه. واعلم أنّ الأدباء أصبحوا أسرى "الأرقش"<sup>٦</sup>.

إلا أنّ الحرب لم تسمح لميخائيل نعيمه بمتابعة كتابة مذكرات الأرقش، فسلخته عنها ثلاثين سنة، إذ أكملها في العام ١٩٤٧ تحت سماء لبنان<sup>٧</sup>.

من الصّعب تصنيف كتاب مذكرات الأرقش. إنّه عمل متعدّد الزّوايا، إذ تجد فيه غرابة السرد وفلسفة التّعبير تمتازان مع السيرة الذاتيّة ومع الرّمزيّة الشاعريّة لتصل المذكرات إلى ذروة التّصوّف. وما إن تكشف المذكرات عن نفسها حتّى نتعرّف إلى الوجه الحميم للأرقش، وإلى صمته العميق وانسلاخه الكامل عن اضطراب العالم الخارجيّ. كما نشهد معركة من أعنف المعارك التي يمكن أن تعرفها نفس إنسانيّة. إنّها معركة بين الأرضيّ والإلهيّ، بين ألوهيّة الأرقش التي تكافح وتناضل لترفعه إلى درجة الصّوفيّة والكمال الرّوحيّ، وبين ناسوت الأرقش المكبل بسلاسل أرضيّة متشابكة مع أهواء العالم تشابكًا يصعب التّخلّص منه.

هكذا كتب الأرقش في إحدى المناسبات: "أنا أرقشان. واحد انسحب من حلقة البشر والتّخفّ بالسكوت ليتمّصل بالعالم الأعلى ويسير معه. وآخر انحجب عن البشر بستار من الأسرار البشريّة. وهو يحاول تمزيق الستار ليعود إلى حظيرة البشر. فهو من العالم الأدنى ويتوق إلى العالم الأدنى. كأنّ بينه وبين هذا العالم حسابات قديمة لا بدّ من تصفيّتها"<sup>٨</sup>.

## ب - حكاية آلام فرتر

عنوان الكتاب باللّغة الألمانيّة: *Die Leiden Des jungen Werthers* أي آلام الشّاب فرتر. نشرته مطبعة فاغاند Weygand Buchhandlung في العام ١٧٧٤ في لايبتيغ Leipzig تحت اسم مجهول الهويّة. على الغلاف نقش دقيق وزخرفة من عمل فنّان يُدعى "أوزر - Oeser" كتابًا بالقرب منه شمعة

<sup>٤</sup> نُشرت الرّسائل الأولى للأرقش مع التّوطئة في مجموعة الرّابطة القلميّة في العام ١٩٢١. تنتهي الأقسام التي جُمعت في تلك المجموعة في الصّفحة ٦٨. مجموعة الرّابطة القلميّة لسنة ١٩٢١ (بيروت: دار صادر ودار بيروت للطباعة والنّشر، ١٩٦٤)، ٣٣-٦٩.

<sup>٥</sup> أوّل مسرحيّة لنعيمه، صدرت عن مطبعة الفنّون في المهجر في العام ١٩١٧.

<sup>٦</sup> نعيمه، المجموعة الكاملة، مج. ٣٥٧/١.

<sup>٧</sup> صدر كتاب مذكرات الأرقش في العام ١٩٤٩.

<sup>٨</sup> نعيمه، المصدر السابق، مج. ٣٩١/٤.

صغيرة تشتعل أمام المرأة<sup>٩</sup>، وكأنَّ قدر الكتاب أن يشعل حريقًا. أمَّا مضمونه، فهو مجموعة رسائل موجّهة إلى فتاة تُدعى شارلوت أحبّها غوته بصمت، ولكنّها لم تتلقَّ تلك الرسائل أبدًا. ففي مستهلّ شهر تمّوز/ يوليو من العام ١٧٧٢، تعرّف غوته إلى يوهان كريستيان كستنر (Johann Christian Kestner ١٧٤١-١٨٨٠) الذي كان يشغل منصب سكرتير مفوض في المحكمة، ثم تعرّف إلى خطيبته شارلوت بوف (Charlotte Sophie Henriette Buff ١٧٥٣-١٨٢٨)<sup>١٠</sup>. وتحوّل الثنائيّ إلى ألبير ولوتّه (Albert und Lotte) في الكتاب، إلى جانب فرتر نفسه.

احتلّت الرسائل أهميّة كبيرة في حركة العاصفة والدّفْع<sup>١١</sup> Sturm und Drang في الأدب الألمانيّ، وكان لها تأثير في الحركة الرّومانسيّة في الأدب. أنهى غوته تأليف الكتاب خلال ستّة أسابيع في المرحلة الممتدّة من كانون الثّاني/ يناير حتّى آذار/ مارس من العام ١٧٧٤.

بعد صدور الكتاب، ظهر وباء "فرتر"، وكانت "درجة فرتر" Werther Mode، إذ راح الرّجال يرتدون القميص الأصفر والسّتر الزّرقاء مثل فرتر. وكان انتحار على طريقة فرتر. وقد استمرّت حال فرتر لعشرات الأعوام في ألمانيا وإنكلترا وفرنسا والبلدان الاسكندنافية<sup>١٢</sup>. وقد لاحظ غوته بنفسه رسومًا لفرتر وشارلوت على قطع من الخزف الصّيني<sup>١٣</sup>.

ليست آلام فرتر قصّة حبّ كما عدّها معاصروها. "إنّها حالة أوليّة لألم الحنين إلى القيم التي يستحيل بلوغها في الجهة الأخرى"<sup>١٤</sup>. يُدعى فرتر في الكتاب؛ أمّا في المطلق، فهو نيزكٌ حادّ عن النّظام فانطفأ. تأكّد فرتر من أنّ "أناه هي حدود، هي درع قويّة لا بدّ من تحطيمها لبلوغ الخلود. فالله موجود في كلّ مكان ولكنّه غير ملموس. ولكي يجده، ولكي يجده، عليه أن يمدّ "أناه" وينشرها. لا بدّ له أن ينكر نفسه وأن يتّسع للموت تمامًا كما يتّسع للحياة. فقلبه هو مصدر كبريائه ومنبع كلّ شيء فيه. "هو منبع كلّ قوّة وكلّ غبطة وكلّ ألم"<sup>١٥</sup>. هكذا يهيم فرتر على وجهه ويستبدّ به القلق، فهو حينًا "لا يرى في السّماء والأرض والقوى الفعّالة المحيطة به إلّا وحشًا يفترس كلّ ما حوله ليعيد اجتراره من جديد"<sup>١٦</sup>. وأحيانًا "يسود نفسه صفاء عجيب يشبه عذوبة الصّباح الرّبيعيّ فيتمتّع به من كلّ قلبه"<sup>١٧</sup>.

<sup>٩</sup> لقد عاينتُ بنفسني النّسخة الأولى من الكتاب في متحف غوته في فايمار Weimar. وصورة الغلاف موجودة في الكتاب الآتي:

Harenberg Literaturlexikon, S625.

<sup>١٠</sup> Gero von Wilpert, *Goethe Lexikon* (Stuttgart: Alfred Kröner Verlag, 1998), S558.

<sup>١١</sup> هي حركة أدبيّة نشأت في سبعينيّات القرن الثّامن عشر، واستمرّت حتّى العام ١٧٨٥. للمزيد من المعلومات عنها، من المفيد العودة

إلى الكتاب الآتي: Gero von Wilpert, *Goethe Lexikon*, S1032- 1034.

<sup>١٢</sup> Richard Friedenthal, *Goethe sein Leben und seine Zeit* (München: Piper Verlag, 2000), S137.

<sup>١٣</sup> عاينتُ بنفسني هذه القطع في متحف غوته في فرانكفورت Frankfurt.

<sup>١٤</sup> Herbert Schöffler, *Die Leiden des jungen Werthers* (Frankfurt am Main, 1938), S178.

<sup>١٥</sup> "Das noch meine einziger Stolz ist, das ganz allein die Quelle von alle mist, aller Kraft, aller Seligkeit and alles Elendes". Herbert Schöffler, *Die Leiden des jungen Werthers*, S74.

<sup>١٦</sup> "Himmel und Freude und ihre webeden Kräfte um mich her: ich sehe nichts al sein ewig verschkingendes, ewig wiederkäuend Ungeheuer". Herbert Schöffler, *Die Leiden des jungen Werthers*, S53.

<sup>١٧</sup> "Eine wunderbare Heiterkeit hat meine ganze Seele eingenommen, gleich den süßen Frühlingmorgen, die ich mit ganzen Herzen genieße". Herbert Schöffler, *Die Leiden des jungen Werthers*, S9.

لعلّ السّمة المشتركة بين كلّ من مذكّرات الأرقش ورسائل فرتر هي مسألة الصّمت. فقد وردت كلمة "سكوت" ومرادفها "صمت" كثيرًا في مذكّرات الأرقش، وكانت أحيانًا كثيرة عنوان يوم كامل. كذلك الأمر مع فرتر الذي خطّ تلك الرّسائل وحملها الكثير من قلبه وفكره ولم يرسلها قطّ إلى حبيبته شارلوت. وإنّنا سنسعى في القسم الآتي أن ندرس مسألة الصّمت في كلّ من الكتّابين.

## ثانيًا: الصّمت في مذكّرات الأرقش وآلام فرتر

يعدّ بعض الكتّاب والمفكرين<sup>١٨</sup> اصطلاح الغربه قابلاً للتطبيق في حال الموافقة على العبارة الآتية: "إنّني أشعر غالبًا بالوحشة"<sup>١٩</sup>، ويذهبون إلى القول "بأنّ الاغتراب هو الشّعور بافتقاد العلاقات ذات المعنى مع الآخرين والإحساس بالتّعاسة بسبب هذا الافتقاد"<sup>٢٠</sup>. ولكن فاتهم أن يميّزوا بين نمطين من الاغتراب: فالفرد الذي يحاول أن يتّصل بالآخرين من غير نجاح، يختلف عن الفرد الذي يختار الحياة وحيدًا لكي يحقّق غرضًا ما. فهذا الفرد قد يشعر بالوحشة وقد ينتابه الحنين؛ ولكنّه اختار عزلته بنفسه. لذلك يتّصف اغترابه بميزة تختلف عمّن لم يختار عزلته بإرادته<sup>٢١</sup>. الأرقش وفرتر هما نموذجان لذلك الفرد الذي اختار عزلته وصمته بنفسه. يقول الأرقش:

"النّاس قسمان: متكلمون وساكتون.

أنا قسم الإنسانية الساكت. وما بقي فمتكلمون.

أمّا البكم والرّضع فلغاية ختمت الحكمة الأزلية على أفواههم فلا يتكلمون. في حين أنّي ختمت على فمي بيدي. وقد أدركت حلاوة السّكوت ولم يدرك المتكلمون مرارة الكلام. لذلك سكت والنّاس يتكلمون"<sup>٢٢</sup>.

السّكوت فضيلة إذًا. ولا عجب أن تتكرّر كلمتا السّكوت والصّمت حوالي السّتين مرّة في مذكّرات الأرقش. كان عليه أن يجد حلًّا لمحنته: إمّا الانغماس في مجتمعه ومحيطه لعلّه يشفى من غربته الداخليّة، وإمّا الانسحاب من المجتمع والتزام الصّمت لعلّه يتغلّب على حال الغربه. اختار الأرقش الحلّ الثاني لأنّ ضجيج العالم الخارجيّ كان يقصيه عن الكنز الكامن في الفم الصّامت. فالصّمت يطهّر النفوس؛ والصّامتون هم في قلب الله"<sup>٢٣</sup>. وعى الأرقش هذه الحقيقة، لذلك سكت وانطوى في عالمه الداخليّ لأنّ العالم الخارجيّ عالم متوحّش: "أنا ناسك بين النّاس. والتّنسك بين النّاس أين من هولهِ التّنسك بين

<sup>١٨</sup> ميدلتون Middleton وماكلوسكي Mc Closky وشار Schaar. راجع كتاب ريتشارد شاخت، الاغتراب، ترجمة كامل يوسف حسين، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، العدد ٧٦، أبريل ١٩٨٤، ص. ٢١٥-٢٢٠.

<sup>١٩</sup> شاخت، المصدر نفسه، ٢١٦.

<sup>٢٠</sup> شاخت، المصدر نفسه، ٢١٦.

<sup>٢١</sup> شاخت، المصدر نفسه، ٢١٧.

<sup>٢٢</sup> نعيمه، المجموعة الكاملة، مج. ٤/٣٤٩.

<sup>٢٣</sup> ربيعة أبي فاضل، الفكر الدينيّ في الأدب المهجريّ، الطّبعة الأولى (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢)، جزآن. ٨٤١/٢.

الوحوش"<sup>٢٤</sup>. صار مجتمع الأرقش وحشًا ضارياً يسَلط برائته على جسده، لذلك سَيَج نفسه بالصّمت ليحمي روحه من براثن الوحش، وترك جسمه مشاعاً لألسنة البشر وبرائتهم.

الصّمت نعمة إلهية لأنه ملجأ الإنسان المغترب في بيته وفي محيطه. وهو الكوة التي منها ينظر الإنسان إلى نفسه ويعبر أغوارها بحثاً عن مصالحة أبدية بينه وبينها. ولأنّ "قدر بعض الناس أن يعيشوا في هذه الحياة غير مفهومين"<sup>٢٥</sup>، فإنهم يلجأون إلى مملكة العزلة والصّمت لعلهم يظفرون بشيء من التعزية للتخفيف من غربتهم. فالعزلة توقّر للإنسان المتعلّق فائدتين اثنتين: الأولى أن يكون مع نفسه، والثانية ألا يكون مع الآخرين. فمن شأن الفائدة الثانية أن تقي الإنسان من ضغط العالم وآلامه ومخاطره.

ولأنّ فرتر كان تلك النّوثة النّشاز في سمفونية مجتمعه، وجد نفسه غير مفهوم، فاعتزل العالم وصمّت صمّت المتصوّفين. فالعزلة "هي منبع الغبطة والطّمأنينة الفكرية للإنسان"<sup>٢٦</sup>. يقول فرتر: "آه يا فلهم! إنّ الحجرة المنعزلة والمسح والحزام الشّائك هي مصدر انتعاش لروحي العطشى"<sup>٢٧</sup>. وحين يعتكف فرتر في حجرته الضيقة المنعزلة وينعش روحه بإكسير الصّمت والهدوء، يتبيّن له أنّ الحياة حلم، وأنّ الإنسان يستعمل قواه وجهوده لقضاء حاجاته الدنيوية وتحقيق رغباته البسيطة السطحية التي غايتها إطالة حياته. فالإنسان لم يتوصّل بعد إلى حلّ أحاجي الحياة الغامضة، من أين وإلى أين؟ فيعود فرتر "إلى نفسه لينطوي على عالم فيه من الأحاسيس والشّهوات الغامضة أكثر ممّا نجده في عالم الحقيقة والأفعال"<sup>٢٨</sup>.

صار عالم فرتر الداخليّ تماماً كما عالم الأرقش الداخليّ، مصدر صدق وعزاء بين أناس يكثر الكلام والتّرثرة. صحيح أنّ الانسحاب من عالم البشر والانفراد بالذات، قدّم شيئاً من التعزية لكلّ من فرتر والأرقش، إلّا أنّ الصّمت فتح لهما عوالم الفهم والمعرفة التي لا تتفتح إلّا بالهدوء والتأمّل الباطنيّ العميق. فقد وجد الأرقش بصمته عيناً باطنية، فرأى ما لا يرى وسمع ما لا يسمع: "ولو قلت لأحدهم إنّ له عيناً باطنية، وأذنًا ليست من لحم ودم، وإنّه بالتأمّل والسكوت يبصر ما لا تبصره العين ويسمع ما لا تسمعه الأذن - ولو قلت له ذلك لرماك بالطّيش والجنون. وكيف لمن يبصر ما لا يبصره الناس ويسمع ما لا يسمعونه إلّا أن يكون مجنوناً في عُرف الناس؟"<sup>٢٩</sup>

<sup>٢٤</sup> نعيمه، المجموعة الكاملة، مج. ٣٤٩/٤.

<sup>٢٥</sup> "Und doch! Mißverstanden zu werden, ist das Schicksal von unsereinem". Aus 17 Mai 1771. J. W. Goethe,

*Die Leiden des jungen Werthers* ( Frankfurt am Main, Suhrkamp Verlag, 1998), S12.

<sup>٢٦</sup> Arthur Schopenhauer, *Aphorismes sur la sagesse dans la vie* (Paris: Presses Universitaires de France, 1989),

p. 103.

<sup>٢٧</sup> "O Wilhelm! Die einsame Wohnung einer Zelle, das härene Gewand und der Stachelgürtel wären Labsale, nach denen meine Seele schmachtet". Aus 30 August 1771. J. W. Goethe, *Die Leiden des jungen Werthers*, S55.

<sup>٢٨</sup> "Ich Kehre in mich selbst zurück, und finde eine Welt! Wieder mehr in Ahnung und dunkler Begier als in Darstellung und Lebendiger Kraft". Aus 22 Mai 1771. J. W. Goethe, *Die Leiden des jungen Werthers*, S13.

<sup>٢٩</sup> نعيمه، المجموعة الكاملة، مج. ٣٥٩/٤.

الصّمت إذًا يجترح العجائب. أمّا العجيبة الكبرى فهي إدراك الإنسان الصّامت عظمة الفكر وقوّته "فيصبح بإمكانه أن ينقل الجبال ويحمل البحار على أكفّ الرّياح"<sup>٣٠</sup>. وإنّ الصّمت يخوّل صاحبه أن يتذوق طعم الجنّة في نفسه وأن يتحسّس بلسم الطّبيعة المحيطة به من كلّ جنب. يقول فرتز: "أشعر أنّني سعيد هنا. فالعزلة هي بلسم قلبي في هذا المكان الفردوسي"<sup>٣١</sup>. ويكتب في مكان آخر من الكتاب: "لا أدري أهي أرواح ساحرة تجول في هذا المكان، أم أنّ هذه الفتنة هي وليدة تخيلات سماويّة في قلبي؟ كلّ ما يحيط بي يبدو من الجنّة"<sup>٣٢</sup>.

دأب الإنسان مذ كان في هذا العالم أن يجول في نفسه مستقصيًا أسرارها. وهذا دليل قاطع على أن نفسه تحوي أمورًا يشعر بوجودها ولكنّه لا يتلمّسها. وإنّه فقط بالصّمت والتأمّل، يستطيع أن يقترب من تلك الأسرار والكنوز. ولهذا السّبب، يصل الصّامت المتصوّف إلى تلك الأغوار الباطنيّة، وحينها يتصالح مع ذاته ويتّحد بها. أمّا فرتز، فقد انغمس في تأمّلات طويلة جعلته يرى بعينه الباطنيّة ما وراء الجبال وما تحت الوهاد وما وراء الآكام، ويسمع دبيب الحياة التي تتجدّد وتفيض فوق الأرض وتحت السّماء: "مسكين أيّها الأحمق! إنك ترى كلّ شيء صغيرًا لأنك صغير. إنّ روح الخالق تنفث من الجبال المتعذّرة تسلّقها، مرورًا بالبيداء التي لم تمسّها قدم، وصولًا إلى المحيط المجهول. وتتمتّع هذه الرّوح بالذّرات كلّها، وكلّ ذرّة تشعر بالخالق وتحيا به"<sup>٣٣</sup>.

الصّمت مفتاح الفكر والرّوح. والكلام تشويش للفكر والرّوح. تصوّر نفسك أمام وردة فوّاحة العبير، شغلك شذاها وأريجها عن كلّ أمر آخر. ثمّ يغرد بلبل في وجه الوردة. فلا شك أنّ تغريده سيلهيك عن التّمتمّع بعبيرها<sup>٣٤</sup>. فعبير الوردة غير ملموس وغير منظور. نحسه ونشعر به تمامًا كالفكر والرّوح، نحسهما ونشعر بهما. إلا أنّ السّبيل الأوحد لوعي معنى الفكر والرّوح هو بالصّمت والتأمّل، لا بالكلام والتّرثرة التي تلهينا عن الجوهر. يقول الأرقش: "كثرة الكلام ملهية للفكر. والبشر يهربون من السّكوت والتأمّل"<sup>٣٥</sup>. فحين تسربلت روح الأرقش برداء الصّمت، قدّست عظمة التأمّل. لذلك، وعى أنّ التّرثرة هي محنة الأمم؛ وتمنّى لو كان له السّلطان المطلق في الأرض ليكرّس يومًا واحدًا في الأقلّ من كلّ سنة للسّكوت والتأمّل الذي حرّره من سلطان المكان والزّمان ليكون ابن الكون الأوسع: "أمّا أنا قسم الإنسانيّة السّاكت - فما أدري، ولا

<sup>٣٠</sup> نعيمه، المجموعة الكاملة، مج. ٣٦٠/٤.

<sup>٣١</sup> "Übrigens befinde ich mich hier gar whol. Die Einsamkeit ist meinen Herzen köstlicher Balsm in dieser paradiesischen Gegend". Aus 4 Mai 1771. J. W. Goethe, *Die Leiden des jungen Werthers*, S7.

<sup>٣٢</sup> "Ich weiß nicht, ob täuschende Geister um diese Gegend shweben, ode rob ie warme, himmlische Phantasie in meinem Herzen ist, die mir alles rings umber so paradiesish macht"- Au 12 Mai, 1771. J. W. Goethe, *Die Leiden des jungen Werthers*, S9.

<sup>٣٣</sup> "Armer Tor! Der du alles so gering achtest, weil du so klein bist. - Vom unzugänglichen Gebirge- über die Einöde, die kein Fuß betrat, bis ans Ende des unbekanntn Ozeans weht der Geist des Ewigschaffenden und freut sich jedes Staubes, der ihn vernimmt und lebt". - Aus 18 August, 1771. J. W. Goethe, *Die Leiden des jungen Werthers*, S52.

<sup>٣٤</sup> جلال الدّين الرّومي، مثنوي، ترجمة وشرح إبراهيم الدّسوقي شتا (الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، ١٩٩٧)، ٨٧/٦.

<sup>٣٥</sup> نعيمه، المجموعة الكاملة، مج. ٣٥٩/٤.

يهمني أن أدري، أين ولدْتُ أو ممّن ولدْتُ. لذلك لا وطن لي. ولو كان لي وطن لتبرأتُ منه. فأنا ابن العالم الأوسع لا ابن جرم صغير ندعوه الأرض<sup>٣٦</sup>.

عظيمة هي قدرة الصّمت والتأمّل؛ فهي تُحدثُ فيضاً في النّفس البشريّة، فتمتدّ النّفس لتتصل بالعالم اللامتناهي وتتحدّ به فتمتلئُ سعادة وحبوراً. وقد ارتفع فرتز بتأمّله ووعى عظمة الطّبيعة السّامية، وأدرك عجائبها في الإنسان والحيوان والنبات، واستمع إلى تغريد الأطيّار، وراقب رقصة الذّباب أمام خيوط الشّمس فانكشفت له "هذه الحياة الدّاخلية الملتهبة المقدّسة التي تحيي الطّبيعة"<sup>٣٧</sup> فقال: "ولمّا كنتُ أُدخل كلّ هذا في قلبي، كنتُ أحسني بما يفيض منّي كالتأمّل، لذلك فإنّ الصّور العظيمة في العالم اللامتناهي، كانت تتحرّك في نفسي فتملأها حياة"<sup>٣٨</sup>.

من خلال التأمّل الصّامت، اكتشف فرتز قداسة الحياة الدّاخلية التي هي من عظمة الله. ولا يدرك عظمة الله سوى من ألنّحف بالصّمت والتأمّل. أمّا الأرقش، فقد اشتعل قلبه بالعشق الإلهي فرأى مجد الله<sup>٣٩</sup> في النّجوم لأنّه تأمّلها بصمت وخشوع: "أنا والنّجوم - تلميذ وأستاذ. فيها رأيتُ مجد الله. ومنها عرفتُ عظمتي كصورة الله ومثاله وحقارتي كتراب"<sup>٤٠</sup>. استطاع الأرقش بقوّة الصّمت أن يتجاوز صفاقة المادّة وأن يشفّ ليدرك الله: "البشر يهربون من السّكوت والتأمّل. فأنتي لهم أن يدركوا الله؟ والذين ينادون باسم الله من غير أن يدركوه بالتأمّل والسّكوت - من غير أن يجدوه في أنفسهم - إنّما ينادون باسم لا مُسمّى له"<sup>٤١</sup>.

أمّا روح فرتز فتحرّر، بفضل الصّمت، من أثقال الهموم، فيسودها الصّفاء، وينجلي بخار الشكّ، فتظهر لفرتز عظمة الخالق المتجلّي في المخلوقات جميعها تماماً كما تجلّى في روحه وفكره، فيقول مُكلّماً نفسه: "أه لو كنتُ تستطيع أن تعيّر عمّا تشعر به؟ لو كنتُ تستطيع أن تُبرز هذه الحياة التي تجري فيك بغزارة وحرارة وتدوّنها على القرطاس حتّى يصبح القرطاس مرآة نفسك كما إنّ نفسك هي مرآة الله"<sup>٤٢</sup>.

<sup>٣٦</sup> نعيمه، المجموعة الكاملة، مج. ٤/٣٦٢.

<sup>٣٧</sup> "... das innere, glühende, heilige Leben der Natur eröffnete..."- Aus 18 August, 1771. J. W. Goethe, *Die Leiden des jungen Werthers*, S52.

<sup>٣٨</sup> "Wie faßte ich das alles in meinem Herz, fühlte mich ich in der überfließenden Fülle wie vergöttert, und die herrlichen Gestalten der unendlichen Welt bewegten sich allbelebend in meiner Seele"- Aus 18 August. J. W. Goethe, *Die Leiden des jungen Werthers*, S52.

<sup>٣٩</sup> من المفيد مراجعة الفصل بعنوان: "السكوت والله في مذكرات الأرقش" من كتاب: متري بولس، أدب الأعماق والأبعاد (جونيه - لبنان: المطبعة، ١٩٨٧)، ٤٣-٧٢.

<sup>٤٠</sup> نعيمه، المجموعة الكاملة، مج. ٤/٣٥٦.

<sup>٤١</sup> نعيمه، المصدر نفسه، مج. ٤/٣٥٩.

<sup>٤٢</sup> "Ach könntest du das wieder ausdrücken, könntest du dem Papiere das einhauchen, was so voll, so warm in dir lebt, daß es würde der Spiegel deiner Seele, wie deine Seele ist der Spiegel das unendlichen Gottes". - Aus 10 Mai, 1771. J. W. Goethe, *Die Leiden des jungen Werthers*, S9.

## ثالثاً: الخاتمة

في مذكراته، حاول الأرقش أن يتعرّف إلى ذاته ويحقّقها في عالم مطلق رآه بعينه الباطنيّة، وتاق إليه بكليته روحاً وفكرًا. لكنّ عالم المقاييس والميزان كان أبدًا يشدّ به إلى أسفل حيث يحيا في ثوب المادّة والجسد. أبا الأرقش أن يخضع لناسوته، فحاول أن يفكّ أحزمة ثوبه ويتعرّى من المادّة. حينها بدأت جلجلته، فوعى أن العبور من الإنسانيّ إلى الإلهيّ ممكن فقط بالاكتمال الرّوحيّ الذي لا يتحقّق إلّا من خلال الانسحاب الكامل من دائرة البشر، واستتطاق العزلة والصّمت لفهم مكنونات الكون والإنسان. أدرك الأرقش في صمته قدرة الله في كلّ مظهر من مظاهر الطّبيعة حيث تتحدّ الأزال والآباد، والأفراح والأتراح، والأنوار والظّلمات، والآلام والآمال في أنشودة واحدة تغنيّ وحدة الوجود ومجد الله في الكون وفي الإنسان. من خلال الصّمت، وجد الأرقش نفسه معلقًا بين الجسد والرّوح؛ لا هو ينتمي إلى تحت، ولا هو ينتمي إلى فوق. وإنّ الانتقال من المحدود إلى المطلق يتحقّق عند فناء الجسد، حين تتخلّص الرّوح من رداؤها الأرضيّ فيكون موت الجسد حياة أبدية لها. بعد أن ذبح الأرقش حبيبته، وضع حدًا لمأساته فذبح نفسه وحدّد انتماءه.

أمّا رسائل فرتر فهي نشيد "غوتي" (نسبة إلى غوته) إلى الله والطّبيعة والحبّ والموت. ففرتر، الشابّ الذي غمرته غربة المكان، لجأ إلى صمت العزلة، فاندفع إلى الطّرقات المستوحدة في مدينة فتسلار<sup>٤٣</sup> Wetzlar الصّغيرة، يراقب غروب الشّمس وطلوع القمر من وراء الخمائيل. في قلب عزلته وسكونه، أدرك أنّ درب المطلق تعبر من خلال القلب. فالحبّ إذاً هو عبور من الجسد إلى الرّوح، ومن المائت إلى الحيّ. صارت الحبيبة رمزًا مقدّسًا يخرّ أمامه ساجدًا وكأنّه ذوب مصفّى من الألم والحنين. علّمه الصّمت أنّ سعادة الاكتمال لا تكون إلّا بتحديد الانتماء، فوجد في الموت تحرّرًا من سجن الجسد وتحطيمًا لحدود المكان والزّمان. فهو إذ لم يحقّق الاتّحاد بالحبيبة على الأرض، فقد حقّقه ساعة موته الذي يعني موتًا جسديًا وإشراقًا روحيًا.

<sup>٤٣</sup> فتسلار، حيث كتب غوته آلام فرتر. هي مدينة تقع على نهر لان Lahn في ولاية هيسن Hessen، بالقرب من فرانكفورت في ألمانيا.